الفصـــل الثـــالث

جـــون لـــوك
(التفكير الحسى)

١ – حياته
٢ – كتبه
٣ – فلسفته : نظرية المعرفة – آراؤه فى السياسة ونظم الحكم
٤ – ملاحظات نقدية

جون لوك John Locke
(١٦٣٢ – ١٧٠٤م)

١ - حياتــه:

يعتبر «لوك» من كبار فلاسـفة المذهب الحسى وخاصة فى إنجلترا، جاء بعد «بيكون» واستطاع أن يوضح المذهب الحسى ويعمقه أكثر منه، بـل وجاهد كثيرا فى الدفاع عن هذا المذهب. ولد «لوك» فى قرية قريبة مـن مدينة «بريسـتول» عام ١٦٣٢م وهى نفس السـنة التـى ولد فيها الفيلسـوف الهولندى «اسـبينوزا» إلا أن لوك سـلك طريقا مغايرا تماما فى دراسـته لطريق «اسـبينوزا»، وقد نشأ «لوك» فى وسط غمار الحرب الأهلية والحكم المطلق فى إنجلترا ولم يكن عمره قد جاوز العاشرة عندما ثـار الشـعب الإنجليزى ضد الملـك الطاغية «تشـارلز الأول» وقد انضم والـده الذى كان يعمل بالمحاماه إلى الثوار بزعامة «أوليفر كروميل» ضد الملك تشـارلز وقد عاش لوك فترة وقوع الملك فى الأسر ومحاكمته بتهمة الخيانة ثم قطع رأسـه. وكان عمره قد بلغ السـابعة عشـرة. وقد ساعد هذا الحادث وغيره على تشكيل فكر لوك الذى يمتاز بالديناميكية وحبه للحرية التى ظل مؤمنا بها حتى آخر حياته.

فى أول حياته دخل مدرسـة «وستمنسـتر» وبقى بها حوالى سـت سـنوات كان يتلقى خلالها اللغات القديمة، وقليل من العلوم الطبيعية. ثـم ألحقه بعد ذلك بجامعة «اكسـفورد» عندما بلغ العشـرين من عمره

وفيها درس اللاهوت والفلسفة المدرسية التى لم تعجبه. ولذلك توجه لدراسة العلوم الطبية بوجه خاص ولكنه لم يتقدم للدكتوراه. ولم يهتم لوك بالفلسفة الا عندما اطلع على آراء وأفكار «ديكارت» و «جساندى». وقد أكد له ذلك أن الناحية الأخلاقية من الدين أولى بالاهتمام والدراسة من ناحيته الأعتقادية. وقد ظل لوك باكسفورد حوالى ست سنوات. خرج منها بعد ذلك ثم سافر إلى «برلين» ملحقا بالسفارة الإنجليزية. وفى عام ١٦٦٦م اتصل «لوك» باللورد «آشلى» الذى صار فيما بعد «كونت شافتسبرى» والذى كان من كبار السياسين فى عصره.

وبسبب النزاع بين حزب البرلمان والملك تشارلز الأول اضطر «لوك» مغادرة إنجلترا مرتين إلى فرنسا فى ١٦٧٢م، ١٦٧٥م – ١٦٧٩م. ومرة إلى هولندا فى عام ١٦٨٣م وظل بها حتى وقعت ثورة ١٦٨٨م فى بلاده فعاد إلى إنجلترا فى عام ١٦٨٩م. وقد أدت هذه الثورة إلى القضاء على الحكم الديكتاتورى بزعامة «كروميل» وعودة الملكية مرة أخرى إلى إجلترا. وقد عمل لوك بطلب من الملك «وليم أورانج» فى المجال السياسى لفترة محدودة حيث رأس لجنة التجارة والمستعمرات وبعدها اعتزل الخدمة العامة. وقد قضى لوك العشرين سنة الأخيرة من حياته فى بلاده ينعم بهدوء وأمان مما دفعه إلى التفرغ للدراسة والبحث فى الشئون السياسية والفلسفية بل وحتى الاقتصادية والدينية..

ونظرا لرحلات لوك المتعددة خارج وطنه، فقد تعرف على الفلسفات التى كانت سائدة فى ذلك الوقت وخاصة فلسفة ديكارت. ولكنه، وحتى الثامنة والثلاثين من عمره لم يكن له إتجاه فلسفى خاص. وقد تكونت

فلسفته الخاصة وتحدد مذهبه نتيجة المناقشات والمسجلات التى كانت تدور بينه وبين اصدقائه فى مسائل الدين والأخلاق. وكان ذلك ابتداء من شتاء عام ١٦٧٠م – ١٦٧١م حيث اكتشف من خلال هذه الناقشات أنه لا يمكن إقامة مبادئ الاخلاق والدين المنزل إلا بعد الفحص عن كفايتنا والنظر فى أى أمور هو فى متناولنا وايها يفوق إدراكنا.. ومن هنا نبتت عنـده فكرة البحث فى المعرفة التـى أولاها اهتمامه وعنايته حتى وضع أسس نظرية المعرفة الحسية فى العصر الحديث..

٢ - كتبـه:

أما عن كتبه، فقد ترك لوك كتبا فى الطب الذى اهتم به فى صباه، وكتبا فى الاقتصاد والسياسة والتربية والدين والفلسفة، ومن أشهر كتبه نذكر منها ما يلى:

أ – رسالتان فى الحكومة الدينية: وفيها يرفض نظرية الحق المقدس، ويعـارض أنصـار الحكم الدكتاتـورى ويدعو إلى فصل السـلطات الثـلاث عن بعضها. ويضع نظرية فـى العقد الأجتماعى تختلف عن نظرية «هوبز».

ب – أفـكار فـى التربية: وفيه يطالب بتحرير الطفل من سـلطة رجال الكنيسة والحكومة، ويشجع التعليم فى المنازل، ويدعو إلى إحلال اللغات الحديثة محل اللغات القديمة..

جـ – إعتدال المسيحية: ويحاول فيه التوفيق بين الدين والفلسفة، ويبين أن أصول المسيحية تتفق مع العقل.. وهو فى ذلك يشبه الفليسوف «أسبينوزا» فى «رسالته الدينية السياسية».

د- مقال فى العقل البشرى: وهو أهم كتبه، وقد نشر فى عام ١٦٩٠م ثم ترجم إلى الفرنسية تحت اشرافه فى عام ١٧٠٠م بعد إضافة أجزاء جديدة اليه.. ويتكون هذا الكتاب من أربعة أبواب فى الباب الأول ينكر المذهب الفطرى وفى الثانى يعلن مذهبه الحسى وفى الثالث والرابع يبرهن على كل الاراء التى تضمنها كتابه..

٣ - فلسفته:

يعتبر «لوك» المؤسس الحقيقى لنظرية المعرفة فى الفلسفة الانجليزية، والذى حدد معالمها وبين أصولها ورسم خطة البحث فيها والتى سار عليها خلفاؤه من بعده..

ويجب القول هنا ان «لوك» لم يهتم بدراسة طبيعة المعرفة والكشف عن ماهية الشىء، ولكنه اهتم اكثر بمعرفة مصادر المعرفة ومحاولة الكشف عن الوسائل والطرق التى نتوصل بها إلى تحصيل المعارف الصحيحة، ثم الكيفية التى يكون عليها العقل الإنسانى عندما يتوصل إلى أفكاره. ولما كان ذلك يضطره إلى التعمق فى حقيقة النفس الإنسانية وتحليل ظواهرها وخصائصها، فقد اعتبره بعض المفكريين.. مؤسس علم النفس الحديث..

وسوف نكتفى فى حديثنا عن «لوك» بعرض نظريته فى المعرفة ومجمل لأرائه فى السياسة والحكم.

أ - نظرية المعرفة:

وضع «لوك» نظريته فى المعرفة فى كتابه المشهور بعنوان: «مقال فى العقل البشرى» الذى يعتبر أهم مؤلفاته. وقد ظهر كما قلنا فى عام ١٦٩٠م وفيه يتسأل «لوك»..

هل معارفنا نظرية. أم.. مكتسبة؟

لقد بحث «لوك» عن الآراء والنظريات السابقة عليه. فوجد أن ديكارت واتباعه يقولون بفطرية المعرفة، أو على الأقل بأن عقل الإنسان يحتوى على أفكار ومعلومات فطرية تولد مع الأنسان وتكون مصدر لأهم صفتين أساسيتين يتصف بها العلم الحقيقى وهما: الضرورة والصدق المطلق.

هذه النظرية فى فطرية المعرفة، يعترض عليها «لوك» وينكر على ديكارت قوله بفطرية المعارف. ويقول.. إن أصحاب فطرية المعرفة يستندون فى رأيهم على دليلين لتأييد وجهة نظرهم.. الأول.. أن كل الناس تسلم بوجود هذه الأفكار أو المعرفة الفطرية دون استسناء.

والثانى.. أن إدراك العقل الإنسانى لهذه الأفكار أو المعرفة الفطرية لا يكلفه أكثر من وعيها والتيقظ لها.. فالعقل البشرى يدرك الأفكار الفطرية بمجرد وعيه وفهمه لهذه الأفكار..

ويقوم «لوك» بعملية تفنيد لهذين الدليلين.. فيقول شارحا بالنسبة للدليل الأول.. أن كل الناس لا تسلم أو تؤمن بفطرية الأفكار، بدليل أن القبائل المتوحشة لا تعلمها. فهذه القبائل تجهل الأفكار الفطرية، وتختلف فى كثير مما اجمع الناس الآخريين عليه. وعلى ذلك فهناك من البشر من لا يعلم بوجود أفكار فطرية فى العقل أو لا يؤمن بوجودها..

بالنسبة للدليل الثانى.. فالعقل لا يمكنه أن يدرك الأفكار أو الحقائق الفطرية وخاصة فى السنوات الأولى من عمر الإنسان.. فالطفل مثلا فى سنوات عمره الأولى يجهل تماما هذه الافكار الفطرية ولا يعلم بوجودها..

ولكى يؤكد «لوك» وجهة نظره فى عدم وجود أفكار فطرية يضرب لنا مثلا.. لقانون عدم التناقض. هذا القانون العقلى الذى ينص على أن الشىء لا يمكــن أن يكــون ولا يكون فى آن واحد. يقول «لــوك» موضحا.. هذه القضية البدهية – قانون عدم التناقض – التى يرى أصحاب فطرية المعرفة أنها موروثة فينا وليست مكتسبة من الحياة. هذه القضية يجهلها الأطفال والبلهاء والقبائل المتوحشة.. هذا على الرغم من أنها قضية بدهية. وعلى ذلك يســتنتج «لوك» أن هذه القضية ومثلها مــن القضايا العقلية المجردة ليست فطرية، ولكنها مكتسبة من التجربة، وبالتجربة الطويلة.

ويســتطرد «لوك» فى شــرحه قائلا بأن هذا الجهل ليس قاصرا على البدهيــات فقط. وإنما كذلك يشــمل الكثير مــن الأفكار المجردة والتى يرى الناس أنها فطرية، وهى ليســت كذلك. ففكرة الســببية، والقوة، واللانهاية، والزمان والمكان، والجواهر.. هذه الأفكار.. لو أننا جردناها مــن العناصر التى ألحقناها بها، نتيجة لما مر علينا من تجارب ووقائع وأحداث جزئية لزالت من عقولنا ولما بقى لنا منها شىء.

وأكثر من ذلك يقول «لوك» حتى فكرة الله. ليســت فكرة فطرية فى عقولنا. ذلك لأن الناس فيها ينقسمون إلى فريقين:

الفريق الأول.. يجهلها جهلا تاما، والفريق الثانى يختلف عن الأول فى تصوير حقيقة فكرة الله: فالشعوب التى تعترف بوجود الله لا تتفق كلها على إله واحد. بالإضافة إلى أنهم يختلفون فى تصويرهم لله أشد الاختلاف.

وعلــى ذلــك يرى «لوك» أنه لو كانت هناك مبــادئ أو أفكار فطرية ثابتــة حقًا، مــا فهمنا كيف تجمع الأمم على الخطأ فى عصور متتالية.

كذلــك فإن اتفــاق الناس على بعــض الحقائق لا يعنــى بالضرورة أنها فطرية. فقد يكون هذا الأتفاق بسبب عوامل أخرى..

وينتهى «لوك» بعد أن أنكر الفطرة إلى إثبات وجود الله إثباتا تجليبيا حســبا بواســطة برهان الإمكان المشهور. والذى يتلخص فى أن.. وجود الكائن الممكن يستلزم بالضرورة، خالقا آزليا أحدثه وأبدعه..

وقد تصدى «كوزان Cauzin» لمعارضة «لوك» وخاصة فى استشهاده بالأطفال والقبائل المتوحشة قائلا.. إن «لوك» استشهد بطريقة غير علمية لا تبعــث علــى الثقة واليقين. ذلك أنه ليس لدينــا معلومات دقيقة عن هؤلاء المتوحشــين والأطفال تمكننــا من الحكم الدقيق. هــذا من ناحية ومــن ناحية أخرى فإن هؤلاء يمكنهم أن يعرفوا القضايا التى ضرب بها «لوك» مثلا إذا نحن قدمنا لهم هذه القضايا فى شكل محسوس يتناسب وعقليتهم..

تلــك كانت الخطوة الأولى عند لوك وهى إنكاره وجود أفكار فطرية. أما الخطوة التالية فتتمثل فى تساؤله عن مصدر المعرفة حيث يتساءل.. من أين جاءتنا المعرفة؟ وما هو مصدر آرائنا؟..

يقــول «لــوك».. إن مصدر المعرفة هو.. الإحســاس.. ذلك أن العقل صفحــة بيضاء خاليــة من أى نقش أو رمز. فإذا ما نقل الإحســاس إلى العقــل الصور الخارجية الموجوده فى العــالم الخارجى فإنه يظهر على هذه الصفحة البيضاء نقوش جديدة، لا تلبث أن يتولد إلى جانبها نقوش أخرى.. وذلك تحت تأثير تفكير الإنسان وتأمله الداخلى..

من هذا اســتنتج أن «التجربة» هى التى ينشــأ عنها علمنا أو معارفنا كلها. ويفســر لــوك التجربة بقولــه.. إن ملاحظتنا للأشــياء الخارجية

المحسوسة، وللعمليات العقلية الباطنية، الأولى بالإدراك الحسى، والثانية بالتأمل الباطنى.. هذه الملاحظة هى التى تمد عقولنا بجميع أفكارها. إذن «الإحساس والتفكير» هما المصدران اللذان تتدفق منهما المعرفة. وبعبارة أخرى.. «الإحساس والتفكير» هما المصدر المعرفة عند «لوك». فالإحساس يمد النفس بالصور الخارجية.. مثل الألوان والأبعاد.

أما التفكير فهو الذى يمد النفس بالصور الذهنية.. مثل التخيل والتذكر والشك والاعتقاد أو الإيمان.

ومن هذين المصدرين تتكون التجربة.. فالتجربة خارجية قوامها الحواس والعالم الخارجى. وداخلية قوامها التفكير والتأمل الباطنى. وهذه التجربة بنوعيها تقف منها النفس موقفا سلبيا. فالنفس تتقبل فقط كل ما يصل إليها وتتغذى من التجربة الخارجية بصفة خاصة بأكبر عدد ممكن (ليس فى العقل شىء لم يمر قبلا بالحواس). ولكن النفس ليست دائما سلبية فى كل الأحوال وإنما تستطيع أن تعمل وتخلق، معتمدة فى ذلك على العناصر الأولى التى قدمتها لها التجربة، فتركب منها أفكارا جديدة وتكون صورا لا وجود لها فى العالم الخارجى. ولعل هذه الصور الجديدة والأفكار الجديدة المركبة هى التى أوهمت بعض الناس بأن هناك فطرة. وأن هناك مصدرا أخر غير الحواس للمعرفة والحقائق..

هكذا يثبت «لوك» أن مصدر المعرفة هما.. الإحساس والتفكير.. وبعد ذلك يقوم بعملية تبويب الأفكار وتقسيمها. فهو يقسم الأفكار إلى قسمين: أفكار بسيطة، وافكار مركبة..

الأفكار البسيطة:

وهى التى تأتى للعقل من الخارج.. وهى أربعة:

١ – **بواسطة حاسة واحدة:** مثل اللون عن طريق البصر، والصوت عن طريق السمع.

٢ – **بواسطة عدة حواس مشتركة:** مثل الامتداد والشكل والحركة.

٣ – **بواسطة التفكير وحده دون الحواس:** مثل فكرة الشك والعقيدة والإرادة.

٤ – **بواسطة تعاون التفكير والحواس معا:** مثل الألم والسرور.

الافكار المركبة:

وهى التى تتكون نتيجة استعراض العقل للأفكار البسيطة والمقارنة بينها ليؤلف من أجزائها أفكار مركبة جديدة. وهى ثلاثة:

١ – **الأعراض:** وهى التى تتركب فى عقولنا نتيجة مختلف الأحاسيس. وهى ليس لها وجود مستقل عنا يتطابق مع ما فى عقولنا. فهى أفكار لأشياء لا تقوم بأنفسها، وإنما تستند إلى غيرها مثل فكرة المثلث أو العدد، وكذلك فكرة الجمال.

٢ – **الجواهر:** وهى الأفكار المركبة التى يقابلها موجودات حقيقية محسوسة. وعلى الرغم من أننا نجهل حقيقة هذه الموجودات الخارجية المحدثة إلا أن وسيلتنا لمعرفتها هى هذه الأفكار التى نسميها جواهر فمعانى الجوهر هى معانى لأشياء تقوم أنفسها مثل فكرة الانسان.

٣ – **العلاقـات:** وهى الأفكار المركبـة التى تتكون فى أذهاننا من الربط بين فكـرة وأخرى. بحيث يتحقق نوع مـن التلازم بين الفكرتين يقـوم على اسـاس قوى من قانون تداعى الأفـكار مثل الصلة بين فكرتى الابوة والبنوة.. فهى علاقات.

بعد هذا التقسيم للأفكار.. يتسأل «لوك» ما هو مقياسنا لما هو صحيح، أو ما هو زائف من أفكارنا؟

كذلـك ما هو مقيـاس الخطأ والصواب؟.. كيف يسـتطيع العقل أن يقطع فى ذلك برأى، إذا كان لا يدرك شيئا غير أفكاره هو؟. ذلك لأنه ليس هناك وسـيلة أمام العقل يعرف بها إذا كانـت هذه الفكرة المعينة تطابق الشىء الخارجى أم لا، أن المشكلة الآن هى..

ما هى العلاقة بين الشخص والشىء؟..

تلك هى المشكلة التى صادفت «لوك»، بل صادفها الفلاسفة فى كل عصر.. وقد اختلفوا فى حلها بطريقتين..

إما بالمثالية: وهى التى تعنى أن أفكارنا عن الأشياء هى كل الحقيقة. وإما بالواقعية: وهى التى ترى أن الأجسـام المادية الخارجية عنا، هى حقائق مقررة، وأن ما فى عقولنا من أفكار ناشـىء عنها ومسـتمد منها. وقد انحاز «لوك» إلى الطريق الثانى وآمن بالواقعية، وأكثر من ذلك جعل إنجلـترا كلها تؤمن بالمذهب الواقعى.. ذلـك أن «لوك» يرى أن الأفكار البسـيطة التى تحدث فى عقولنا من اتصالها بالأشـياء ليست وهما من تصوير الخيال. وإنما هذه الأفكار طبيعية ومسـتمرة للأشـياء الخارجية عنـا. وعلى ذلك فهى تطابق أصولها الخارجية كل التطابق، لأنها تقدم لنا الأشياء بالصورة التى فى قدرتها أن تكونها فى عقولنا.

ومع ذلك، وبعد ذلك، نجد لوك قد نقض نفسه وبنفسه. فبعد أن اعترف بعدم قدرة العقل على معرفة غير الأشياء أو الأفكار الواردة إلينا من الخارج، نجده فى محاولة لتفسير وجود الله يضطر إلى الأعتراف بوجود أفكار سابقة فى العقل. ذلك لأن العقل يحتوى على صور أو نماذج لحقيقة الله والنفس والعالم الخارجى. ويرى أن هذه الأفكار أو الصور الموجوده فى عقولنا هى مقياس الخطأ والصواب. فإذا كانت فكرتنا عن الشىء الخارجى مشابهة للصورة الموجودة فى العقل من قبل.. كانت صحيحة. وإذا كانت غير مشابهة لها كانت خطأ.

وهكذا.. من حيث بدأ «لوك» بالهجوم على الأفكار الفطرية ينتهى بالقول بأن فى العقل نماذج أو أفكار فطرية.

ويقول «لوك».. بمقدار التطابق أو نقصه بين الفكرة ونموذجها يكون مقدار وضوح معرفتنا ودقتها. ومن هنا يمكن القول أن هناك درجات للمعرفة هى كما يلى:

المعرفة البديهية:

وهى التى تتمثل فى ادراك العقل لما بين الفكرة ونموذجها من تطابق أو عدم تطابق، دون الاستعانة بفكرة ثالثة. ومثال ذلك.. معرفتنا بأنفسنا.

المعرفة البرهانية:

وهى التى تتمثل فى إدراك التطابق أو عدم التطابق إدراكا غير مباشر لحاجتنا للبرهان فى إثبات التطابق من عدمه. مثال ذلك.. معرفتنا بوجود الله.

المعرفة الغامضة:

وهـى التـى تتمثل فـى إدراكنا للعالم المادى المحسـوس بواسـطة الحواس.. وهذ المعرفة ترجح صدقها على كذبها.

ويقـول «لوك» ما عدا هـذه الدرجات الثلاث للمعرفة لا يمكن وضعه فى دائرة العلم. لذلك لأننا لا يمكن أن نحدد موقفنا منه إلا على أساس من الأحتمال، بل والجهل أحيانا. ومثال ذلك ما نحكم به على الأشياء الغيبية والكائنات الروحية، بل وصفات الطبيعة. ولذلك يجب أن نحكم هنا بعدم علمنا بطبيعة الله والعوالم الروحية، إلا إذا اعتمدنا على الوحى والعقيدة أو الإيمان.

وهكذا اسـتطاع «لوك» أن يبين الجانب السيكولجى لمشكلة المعرفة وهو أمر جديد تمكن «لوك» من إضافته. مع العلم أن مشكلة المعرفة هذه متعددة الجوانـب، فهى تتصل بالمنطق، كما تتصـل بالميتافيزيقا. وأضاف «لوك» صلتهـا بعلم النفس وذلك عندما لفـت الأنظار ولأول مرة إلى عقلية الأطفال والبلهاء والمتوحشين. وبذلك فقد مهد لوك لدراسات علم نفس الطفل، وعلم النفـس عند مرضى العقول، والحياة العقلية فى الجماعات الأولى. ومن هنا – يعتبره بعض المفكريين المؤسس الحقيقى لعلم النفس الحديث..

أن فلسفة (لوك) تقوم على الفكرة التى تعتبر فى ذات الوقت: عنصر المعرفة، وصورة تمثل الواقع وهذان مظهران للأفكار يتفق فيهما تماما مع ديـكارت إلا أن اتباعه من المفكريين الانجليز لم يوافقوه عليهما. وبصفة خاصة الفيلسوف (بركلى Berkley) الذى وافق على المظهر الأول (عنصر المعرفة) ورفض الثانى (صورة تمثل الواقع).

وبهـذا نجد أن «لوك» أراد أن يقف موقفًا وسـطًا بين: نزعة عقلية تبالغ فى الفروض والأمور النظرية، وأخرى حسـية لا تؤمن الا بالواقع والتجربـة الخارجية. ومن هنا نجده يذهـب إلى التحليل الدقيق الذى سـاعده على أن يبعد الأفكار المجـردة الغامضة.. وأن يقيم المعرفة على دعائم واضحة.

ويـرى «لوك» أيضًا.. أننا نحصر أو نحدد المعلومات الأنسـانية فى دائـرة ثابتة ومحددة، يمكـن لنا من خلالها أن نحقـق للأفراد.. ومن بعدهم المجتمع السكينة العقلية والطمأنينة أو الأمان النفسى.

ب - آراء لوك فى السياسة ونظم الحكم:

يمكن القول أن هذه الآراء تتصل بعلم السياسة وعلم الاجتماع فعندما نسـتعرض آراءه السياسـية نجد تأثره بالفيلسـوف الانجليزى «توماس هوبـز» ولكنـه يختلف عنه فى كثير من الأمور خاصـة تلك التى تتعلق بأطـوار الجماعة وما يسـودها من نظم، وتلك التى تتعلـق بفكرة العقد الاجتماعى.

ومن أطوار الجماعة، يرى لوك أن المرحلة الفطرية أو البدائية لا تخلو مـن التنظيم الاجتماعى ذلك لأن الطبيعة البشـرية قضت بتقرير حقوق الإنسان. وهذه الحقوق ليست وليدة المجتمع ولا هى من صنعه أو خلقه. وإنما هذه الحقوق تولد مع الإنسـان وتوجد بوجوده فى أى جماعة من الجماعـات، وفـى أى زمن من الأزمان فالنـاس بالطبيعة والفطرة ومنذ الخلق الأول، أحرار متسـاوون. وعلى ذلك نسـتطيع أن نسـتخلص أن

الاجتماع ونظمه وقوانينه سابق على وجود المجتمع المدنى والسياسى، وما تتطلبه من عقد اجتماعى أو دستور جماعى.

ولكن. لما كانت ضرورة البقاء وحب الحياة يستلزم بأن يتولى السلطة أو الحكم فرد من أفراد المجتمع، كان من الضرورى أن يستند أمر هذه السلطة إلى شخص واحد أو عدة أشخاص يمثلون المجتمع كله. وعلى ذلك فأساس المجتمع عقد ارادى ورضاء مشترك بين أفراد المجتمع ويجب أن ينص فى العقد بين هذا الفرد (أو الأفراد) من ناحية، وبين أفراد المجتمع كله من ناحية أخرى على أنه طرف فيه. وملتزم بتطبيق نصوصه، وأنه ينطبق عليه مثل بقية أفراد المجتمع وهذا يعنى حضور هذا الفرد (أو الأفراد) توقيع العقد. وفى مقابل ذلك له عند الناس السمع والطاعة بشرط احترام العقد وتنفيذ ما فيه. وهكذا يضطر الجميع إلى احترام بنود العقد والسهر على تنفيذه. والغرض من هذا العقد الاجتماعى هو حماية الحقوق الطبيعية للناس، ومنها حق الملكية، وعلى ذلك فالحق الإلهى للملك غير مقبول ويرفضه لوك على أساس أنه فى نظره يتجاوز الأمور الطبيعية، وبالتالى يصبح من حق الشعب الثورة على الملك وخلعه عن الحكم إذا خان العقد ولم يحترم بنوده. ومن الجدير بالذكر هنا أن «هوبز» كان يؤيد النظام الملكى والحق الالهى المقدس، كما كان يرى أنه ليس من حق الشعب الثورة على الملك أو خلعه مهما كان الأمر.

وبعد ذلك يقسم لوك السلطة إلى ثلاثة أنواع هى:

السلطة التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، وهو يرى وجوب الفصل بين هذه السلطات الثلاث بحيث لا يكون لا حد سلطان على واحدة

منها. وفى رأيه أن السلطة التشريعية هى السلطة العليا فى الدولة ولها الحكم فى كل خلاف أو نزاع بين الحاكم والشعب، فالحاكم مقيد بإرادة الشعب وهكذا يدعم لوك أركان الحكومة الجديدة، لأنها قامت على إرادة الشعب، ومن المعروف ان المفكر الفرنسى المعروف «روسو» قد تأثر بهذه الآراء وخاصة نظريته فى العقد الاجتماعى والتى كانت مبشرا بالثورة الفرنسية والتى اندلعت بالفعل عام ١٧٨٩م.

ونستخلص من آراء لوك ان مصلحة الفرد هى أساس نظريته السياسية فهى الغاية التى من أجلها قامت الدولة. وعليها أن تلتزم بتحقيق كل مصالحه والسه على حقه فى الحياة والحرية والامتلاك.

تلك هى آراء لوك فى المعرفة والسياسة، وهو أول فيلسوف فى العصر الحديث يوجه الأنظار إلى مشكلة أو معرفة وعمل العقل، وينادى بالحرية والديموقراطية ويرفض الحق الآلهى للملوك. وقد استولى بارائه الفلسفية والسياسية والنفسية على الفكر فى القرن الثامن عشر. ولكن هناك بعض المأخذ تؤخذ عليه موجزها فيما يلى:

٤- ملاحظات نقدية:

«التردد فى آرائه أحيانا».

التناقض الذى نجده فى فكرته عن علاقة الفرد بالعالم الخارجى فمرة تجده يقول أن الأشياء المادية هى التى تصدر عنها المعرفة عن طريق انطباع آثارها على صفحة العقل. ومرة اخرى يقول أن العقل لا يعرف

إلا أفكار نفســه، والتى قد لا تتطابق أو تشــبه ما هو موجود فى العالم الخارجى.

أنكر وجود الأفكار الفطرية، ثم عاد وقال بوجود الأفكار الفطرية مثل فكرة الله، والنفس، والعالم الخارجى.

عندما اعطى لوك الأغلبية السلطة المطلقة فى الحكم تناسى أو أهمل مصير الأقلية، ولم تخطر بباله مثلا مدى ما يمكن أن يحدث من الأغلبية من اســتبداد بالرأى وتشــبث بالحكم، مما يتحول مع الزمن إلى نوع من الدكتاتورية أو الأستبداد.

كان قاسيا عندما حرم النساء والرجال وأى مواطن آخر لا يملك شيئا من صفته كمواطن، له حقوق وعليه واجبات.

وبالرغــم من هــذه الملاحظات وغيرها، فان ذلــك لا يقلل من قيمته وشــأنه كفيلســوف ومفكر حر نادى بالحرية والتســامح الدينى وحرية العقيدة والعبادة وطالب بفصل الدين عن الدولة. وقد تأثر بفكره وفلسفة الكثير من مواطنيه فى انجلترا، وخارج انجلترا فى فرنسا والمانيا وهولندا حيث انتشرت كتبه وترجمت إلى لغات هذه الدول مما ساعد على ذيوع أفــكاره وآرائه والتى تأثر بها من بعده، فولتير، روســو، وكانط وغيرهم من الفلاسف المحدثين.

وبعد..

فى الوقت الذى يضع فيه «هوبز» قيودا على حرية العبادة، ويفرض على النــاس الخضوع لأوامر الملك فى عبادة ما يريدون، نجد أن «لوك»

يدعو إلى التسـامح الدينى، وحرية الإنسـان فى أن يعبد ما يراه متوافقا مع عقيدته الدينية، كما أن لوك يفصل بين الدين والدولة، ويحظر على الدولة فرض أى دين أو عقيدة معينة على الناس، بل يعطيهم الحق فى عبادة ما يريدونه.

❑❑❑